حديث الأحد

الطـــريق نحـــو الحـــرية

بقلم: أحمد بهاء الدين

كان خطاب الرئيس السادات هذه المرة متعدد الجوانب، شديد التنوع... تعرض فيه الكثير جدا من القضايا الداخلية والعربية والدولية.... وهي أمور تكثر على تحقيق واحد.. ومن أجل هذا فسوف أحاول أن أستخلص من هذا الكثير الكثير، أبرز ما يمكن استخلاصه في مجال السياسة الداخلية بالذات...

وقد تحدث الرئيس أحيانا بعاطفة حادة وأحيانا في غض شديد، وربما كان السبب مالا بد أنه كان يطوف بذهنه من شتى أنواع الصعوبات والمعاناة التي لاقاها خلال ست سنوات، من الصراعات اليومية المستمرة.

ولكن، هذا شأن كل من يتصدى لقضايا كبرى، وتحولات أساسية... لابد لـه أن يركب العواصف، ويحارب في جبهات كثيرة... خصوصا أن الاختيار الجوهري الذي أخذ به الرئيس السادات، والذي تنبع منه سائر الاختبارات، من طبيعته أن يفتح النوافـذ والأبواب لشتى الرياح والعواصف، العاقلة والمجنونة، والطيبة والشريرة...

هذا الاختبار السياسي الأساسي، الذي أخذ به الرئيس السادات يمكن أن تحصره في أمور ثلاثة:

الأمر الأول، والأساسي هو رفع القيود بالتدريج وتوسـيع مسـاحة الحريـات بالتدريج.

الأمر الثاني، هو إقامة مؤسسات دستورية، نهائية، مسـتقرة، قابلـة للتطـوير بالأساليب الدستورية.

الأمر الثالث، أن يتم هذا الانتقال الصعب، بل البالغ الصعوبة، من الثورة إلـى النظام في تدريج ومن خلال ممارسات متوالية.... لا يقيدها الخـوف، ولا يـدفع بهـا التسرع إلى المجهول....

أي محلل، ينظر من بعد بعيد إلى الصورة، قد يراها كاملـة ولا يغـرق فـي تفاصيلها سوف يجد تلك الملامح الأساسية الثلاثة التي تراها العين في المسيرة السياسية الداخلية خلال ست سنوات....

وقد عبر الرئيس عن هذا المعنى بتعبيرات كثيرة، وكررها وشرحها مراراً، في مختلف الخطابات والوثائق التي تقدم بها للشعب.

شرح مرارا وتكرارا فكرة الانتقال من الثورة إلى النظام. وقال أن نجاح الثورة النهائي في وصولها إلى حيث تصبح فيه نظاما طبيعيا للحياة، يحمي نفسه بنفسـه دون إجراءات استثنائية.

وشرح مرارا وتكرارا فكرة الانتقال مـن الشـرعية الثوريـة إلـى الشـرعية الدستورية، وهي فكرة بالغة الأهمية لو تأملها المتأملون....

فالثورات حقيقة من حقائق التاريخ في حياة كل شعب من الشعوب. وليست كـل حركة عنيفة ضد السلطة القائمة هي ثورة. إنما هي تصبح ثورة حين يكون تأييد الشعب لها واضحا لا يشوبه شك وحين تثبت صدق تعبيرها عن مطامح أساسية لدى الشـعب. ولما كان الفقه الدستوري والقانوني يتابع الحياة، ولـيس العكـس. ولمـا كـان الفقـه الدستوري والقانوني " يصوغ" العلاقات التي يتوصل إليها المجتمع في مرحلة ما، وليس هو الذي "يؤلف" هذه العلاقات للمجتمع، فقد عرف التاريخ وعـرف الفقـه والقـانون بالشرعية الثورية. وبالتالي أن الثورة حين تنجح وتستقر ويتجاوب معها الشعب تصـبح شرعية جديدة ولا تصبح خروجا على الشرعية أو انقلابا يعاقب عليه القانون....

ومن طبيعة الشرعية الثورية أنها تخطيء وتصيب، وتنصف وتظلـم، وتهـدم وتبني، لأنها تتم في ظروف صراع، وخطر، وتآمر، فهي دوامة عاصفة وليست نسيما

عليلا، ومع ذلك فليس معنى هذا التأكيد أن كل ما تفعله الثورة مباح، وليس معنـاه أن الانحرافات لا يعاقب عليها.

والشرعية الدستورية هي التي تقوم على أساس دستور ثابت . فهي جدار ثابـت قائم وليست عجلة تدور وتتحرك في سرعة وأحياناً في عنف.

بل إن الرئيس السادات أطلق على حركة 15 مايو ذاتها اسم "ثورة التصحيح".

" كل هذا التغييرات من الثورة إلى النظام – من الشرعية الثورية إلى الشـرعية الدستورية " ثورة التصحيح" كل هذه التعبيرات والأسماء والاصطلاحات تعني بشـكل واضح أن يوم 15 مايو هو امتداد ليوم 23 يوليو. وأنهما تنبعان من شرعية واحدة. وأن المنطلقات الأساسية واحدة. وأن الجديد هو علاج المظـالم، ورأب الجـروح، وتلـك الأربطة، والتطور مع تطور حقائق الزمن...

.. وكل من يقرأ التاريخ يعرف أن هذه العملية التي تصدى لها الرئيس السادات عملية بالغة الصعوبة. والمرء لا يكاد يجد نموذجا واحدا تمت فيه هذه العملية بسـلام، فالثورة أما تعقبها ثورة مضادة ثم ثورة على الثورة المضادة أو يكـون الانتقـال مـن الثورة المضادة أو يكون الانتقال من الثورة إلى النظام عنيفا شرسا كبدايـة الثـورة أو أكثر وتدفع الشعوب ثمنا كبير من دمائها ومصالحها وحياتها حتى تصل إلى صيغة تبقى على قواعد الثورة التي لم تكن عبثا، وتترك فـي نفـس الوقـت مسـاحة للاسـتقرار والانطلاق والتطور السلمي الحر بعد ذلك...

عملية بالغة التعقيد... إقامة ذلك الجسر بين مرحلتين، تلك التي أخـذ الـرئيس على عاتقه عملية بنائها.

وكما قلت، فقد زاد الأمر صعوبة أن الاختبار كان مزيدا من إقامة المؤسسـات الثابتة وقدرتها على التعامل .. ومزيدا من الحرية....

فقد هبت عواصف عنيفة أرادت أن تلوي عنق 15 مايو وتجعلها ثورة مضـادة تريد أن تجتث 23 يوليو من الجذور.

وكان لا مفر من أن تواجه هذه العاصفة العنيفة عاصفة أخرى رأت هذا الخطر فاردات تشبثا بمبادىء ثورة 23 يوليو، وبالغت بالضرورة في التمسك بكل نـص مـن نصوصها ورفض كل نقد يوجه إليها وكأننا يجب أن نصاب بتصلب الشرايين ذلـك أن الجرام لم يمد جو " نقد وتقييم" بل جو هدم وتفويض وتشهير...

ولا أحد بدون نقد على جانب من جوانب ثورة كانت تجربة وطنية استمرت ربع قرن. ولكن المرء يستنكف من النقد الجدي في مساحة انفردت بها معاول الهدم.

لقد زاد هذا الجو من صعوبة المهمة الصعبة التي تمت رغم وجود عدو محتـل ورغم الإمداد لحرب مصيرية، ورغم خوض هذه الحرب والانتصار فيها، ورغم واجهة ما تلاها وما يزال من أعنى وأعنف المنـاورات والمسـاومات والضـغوط السياسـية والاقتصادية والعسكرية.

وقد كان ممكنا أن يؤدي هذا كله إلى الارتداد من التحرك الأساسي الذي شرحت نحو مزيد من الشرعية ومزيد من الحرية. ولكنا لا نتمنى أن يحدث شيء من هـذا ولا نريد لهذه المسيرة أن تردها الصافة أو شهوة الانتقام.

إن نقد الماضي أمر ضروري، على أن يكون في جو صـحي. وأن محاسـبة ومتابعة كل انحراف أمر ضروري. وهو عملية مستمرة بالنسبة للماضـي والحاضـر والمستقبل، لأنه لا شيء يدمر معنويات الشعب ويؤثر على عزيمته أكثر من شيوع جو الانحراف دون مطاردة والتسيب دون عقاب. ولكن كل هذا يختلف تماما عن جو الثورة المضادة المتكاملة الأركان..

وكان لابد أن يمتد الجدل بسرعة إلى رمز 23 يوليو الأساسي، وهو جمال عبد الناصر. حتى وصل الأمر إلى اتهامه بالاختلاس. اختلاس ساذج ولم يصـدق النـاس الاتهام لحظة واحدة...

لأن أي تاجر شنطة يعرف كيف يضع حسابات له في الخارج، ورئـيس دولـة تصرف في آلاف الملايين ليس مضطرا إلى أن يفعل ذلك عن طريق البنوك المصرية

الرسمية المسجلة. ولكن رد الفعل كان عنيفا غاية العنف من المحيط إلـى الخلـيج. لا للجانب القانوني من التهمة، ولكن لمغزى توجهها والتطبيل لها من الأساس.

وامتدت أيدى صغار الموظفين إلى صور وتماثيل لعبد الناصر تخفيها وتنزعها .. وهذا الأمر لا يهم، فأحمد عرابي ليس له في مصر حتى الآن تمثـال ولا ضـريح. ومصطفى كامل ومحمد فريد لا يعرف أحد أين مدفنهما وليسا من معالم القاهرة. وسعد زغلول جاء وقت انتزع فيه إسماعيل صدقي جثته من ضريحه الذي أقيم له، ولم يعـد جثمان سعد زغلول إلى ضريحه إلا بعد سنوات طويلة وبضغط شعبي.

ولن أتحدث عن رصيد عبد الناصر الذي عادت الشعوب تذكره من جديـد مـن الجزائر أيام ثورتها إلى الخليج إلى اليمن ولكن يكفي أن أروي واقعة واحدة:

ففي الأسبوع الأسبق، كان برلمان دولة الكويت يناقش الاتفاقية التي بمقتاضـها استولت الكويت على كل بترولها من الشركات الأجنبية...

وفي جلسة المناقشات... وقف أكثر من نائب كويتي يقول أنه في هذه المناسـبة التاريخية... وإزاء السهولة التي تمت بها هذه الخطوة الكبرى، يجب أن نسـجل فـي محضر البرلمان الكويتي العرفان لجمال عبد الناصر، الذي كان أول من أطلق صـيحة بترول العرب للعرب يوم كان هذا القول كفر وتجديفا والذي كانـت مناطحتـه لقـوى الاستعمار في المنطقة هي التي أدت في النهاية إلى هذه النتيجة.

ولعل هذه الواقعة تعطي المصريين فكرة عن تقدير الأمة العربية لفضل شـعب مصر، ونظرة الأمة العربية الذاهلة إزاء محاولة البعض تمزيق هذا الفضـل وتسـويد صفحته....

كل هذه العواصف وأمثالها كان ممكنا أن تمزق المحاولة التاريخية الصعبة التي بدأها أنور السادات. وقد خلقت له الكثير من الصعوبات. لولا أنه أمسك في عناد بعبور العاصفة، وبالمعنى في العملية الدقيقة: نقل مبادىء ثورة إلى أمان النظـام، وتصـحيح الكثير من الأخطاء والانحرافات وممارسة النقد الذاتي للثورة عمليا وبالفعل لا بـالقول ومن داخل الثورة لا بفعل قوة خارجية. وإقامة المؤسسات الدستورية لمواجهة المستقبل

ومرة أخرى، لا يقدر قيمة هذه المحاولة والمضي فيها على هذا النحـو، إلا مـن قـرأ التاريخ ودرس السوابق، ورأى أي ثمن دفعته الشعوب الأخرى في مثل هذه المرحلة.

وكأني بخطاب الرئيس، في هذا الجانب منه، كان يؤكد على هذه المعاني كلهـا، ويعمقها، ويحاول أن يضع لمحاولات استغلال المرحلة حدا، حتى نسـتطيع أن ننطلـق بسرعة وأمان أكثر....

وحين ننظر إلى آخر خطوة أعلنها في هذا المجال، وهي إقامة المنابر المتعـددة في إطار تحالف قوى الشعب العاملة، نجد أنها تجربة فريـدة لا نعـرف لهـا مثـيلا. وبالتالي فهي قد لا ترضى الذين يعودون إلى شئون السياسة وحركـة المجتمـع إلـى المراجع المدرسية تسجل عادة ما حدث، ولا تسجل ما لم تصنعه الحياة والتجارب بعد. ومن حقنا جميعا أ ن نحتفظ بالرأي الأخيرة فيها على ضوء التجربة. ولكن من واجبنـا في تقديري أن نعمل على إنجاحها، حتى من لا يرى الانضـمام إلـى أيهـا، ويختـار محاسبتها جميعا وهي مقبلة على انتخابات برلمانية عامة من حق المستغلين فيها وغير الأعضاء في الاتحاد الاشتراكي أن يخوضوها ويدخلوا السلطة التشريعية. وأي عاقـل لابد أن يعترف أنها خطوة واسعة إلى الديمقراطية السياسية في زمن قصير جدا.

وقد ترتفع رايات زائفة وتسمى أشياء بغير مسمايتها، فقد عرف الشعب حزبـا اسمه الأحرار الدستوريين كان أول حزب عطل الدستور. وعرف حزبا اسـمه حـزب الشعب جاء لمحاربة الشعب، وعرف حزبا اسمه حـزب الاسـتقلال ليكـون مطيـة للاحتلال. ولكن الممارسة هي التي تكشف كل هذا والمزيـد مـن الحريـة الحقيقيـة للصحافة وللعمل السياسي، المدعم برأي عام قوي كفيل بأن لا يصح في النهايـة إلـى الصحيح. ولن تكون بعد ذلك أحزاب حقيقية لا عاكسة لقى اجتماعية وتيـارات فكريـة حقيقة.

أما الجانب الآخر من الموقف الداخلي، وهو الجانب الاقتصادي، فلـه حـديث آخر.